استثمار المباحث البلاغية عند الإمام الشعراوي – رحمه الله-في فهم الخطاب القرآني - علم البيان أنموذجا -

Investing the rhetoric sciences at Imam Al-Shaarawi in understanding the Quranic discourse -Statement science as a model-

حمزة بوخزنة[1,*]

[1] جامعة الوادي، (الجزائر)

boukhezna-hamza@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2023/01/01 **تاريخ المراجعة**: 2023/03/12 **تاريخ النشر**: 2023/03/31

ملخص:

تتحدث هذه المقالة عن أهمية علم البلاغة في فهم كتاب الله تعالى، من خلال التركيز على الصور البيانية التي نجد لها دورا كبيرا في عرض المعاني القرآنية للمتلقي تصويرا وتقريبا، ومن بين العلماء المعاصرين الذين عُنو عناية ظاهرة بذلك؛ الإمام الشعراوي – رحمه الله- الذي كان يتمتع بحس لغوي فذ وذائقة بلاغية مميّزة، مكّنته من الوقوف والكشف عن كثير من وجوه الإعجاز البياني في خطابات القرآن الكريم المتنوعة.

وقد دارت هذه الدراسة حول إشكالية ارتبطت بالكشف عن كيفية استفادة هذا الإمام من علم البلاغة في خدمة كتاب الله من خلال الوقوف على نماذج تطبيقية في جملة من الصور البيانية التي تضمنها آيات الذكر حكيم.

ولمعالجة هذا الموضوع قمنا بتقسيمه إلى:

- مقدمة.
- المحور الأول: التعريف بالإمام الشعراوي وأهمية تفسيره.
- المحور الثاني: أثر الصور البيانية عند الإمام الشعراوي في فهم المعاني القرآنية وتجسديها.
- خاتمة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، علم البيان، الشعراوي، التفسير، الخطاب القرآني.

Abstract:

This article talks about the importance of the science of rhetoric in understanding the Book of Allah Almighty, by focusing on the Statements images that we find have a great role in presenting the Qur'anic meanings to the recipient. Among the contemporary scholars who took care of this; Imam Al-Shaarawi - may Allah have mercy on him - who is distinguished by a wonderful rhetorical taste, which enabled him to reveal many aspects of the Statement inimitable of Quranic discourse.

This study revolved around a problem related to revealing how Imam Al-Shaarawi invested the science of rhetoric in the service of the Book of Allah by standing on applied models in a number of Statements images included in the Quranic verses.

***Key words**: rhetoric; Statement science; Shaarawi; interpretation; Quranic discourse.*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

يعد تفسير الإمام الشعراوي من التفاسير الحديثة المهمة التي عرضت المعاني القرآنية بأسلوب ميسر ودقيق، وقد ضمّنه صاحبه كثيرا من الفوائد واللطائف والمقاصد القرآنية السامية التي توصل إليها بما أتاه الله من مقدرة فريدة على الغوص في المعاني والكشف عنها. وقد كان الإمام إلى جانب عنايته بمقاصد القرآن شديد العناية بأساليب القرآن وظواهره اللغوية المتنوعة، فلا نكاد نجده يقف على أسلوب ولا صورة بلاغية لها أثر كبير في المعاني إلا ويبرز وجه البيان فيها والدقة القرآنية في اختيارها.

ومن هنا جاء موضع هذا المقال ليكشف عن بعض جانب من جوانب عناية الإمام الشعراوي ببلاغة القرآن ، وذلك من خلال الوقوف على جملة من الصورة البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية التي كان للشيخ رأي بلاغي فيها كشف عنه، مما بما أتاه الله من قوة في البيان وسعة في علوم اللغة ودراية بتصرفات أساليبها وتحولاتها.

وارتبطت إشكالية المقال بالكشف عن كيفية استفادة هذا الإمام من علم البلاغة في خدمة كتاب الله من خلال الوقوف على نماذج تطبيقية في جملة من الصور البيانية التي تضمنها آيات الذكر حكيم.

ولمعالجتها قمنا باعتماد المنهج الوصفي التحليلي، وقسمنا حيثيات الدراسة وفق الآتي:

- مقدمة.

-المحور الأول: التعريف بالإمام الشعراوي وأهمية تفسيره-

-المحور الثاني: أثر الصور البيانية عند الإمام الشعراوي في فهم المعاني القرآنية وتجسديها.

- خاتمة.

المحورالأول: التعريف بالإمام الشعراوي وأهمية تفسيره.

أولا- تعريف موجزبالإمام الشعراوي[1]:

هو محمد بن متولي الشعراوي المصري، ولد في الخامس عشر من أفريل سنة1911م، بقرية دقادوس إحدى مدن الدقهلية بجمهورية مصر العربية، حفظ القرآن الكريم في الحادية عشرة من عمره. وفي عام 1916م التحق بمعهد الزقازيق الابتدائي الأزهري، وأظهر نبوغاً منذ الصغر في حفظه للشعر والمأثور من القول والحكم، ثم حصل على الشهادة الابتدائية الأزهرية سنة 1923م، ودخل المعهد الثانوي، وزاد اهتمامه بالشعر والأدب، وحظي بمكانة خاصة بين زملائه، ثم التحق الشعراوي بكلية اللغة العربية سنة 1937م، وترقى في الدراسة حتى حصل على شهادة العالمية وإجازة التدريس.

وقد اشتهر الشيخ بكثرة إلقاء الدروس في التفسير في بعض المساجد (مسجد الشيخ سليمان بالحرم، شارع فيصل-القاهرة، وهو على مقربة من مسكن الشعراوي). كما كان كثير الأسفار إلى العديد من البلدان، وطاف

ببعض الولايات والمدن الأمريكية، وشارك في العديد من المؤتمرات الإسلامية. مما كان عاملا في ذياع صيته وشهرته بين الناس.

ومن أبرز شيوخه[2]: الشيخ عبد الرحمن الشهابي، والشيخ أحمد الطويل، والشيخ محمد أبو عمارة، والشيخ حسن زغلول، والشيخ أبي عبد الرحمن البياضي، والشيخ عبد اللطيف جودة، والشيخ كفافي جود.

ومن تلاميذته: الشيخ الجميلي، ومحمد صديق المنشاوي، وابنه سامي محمد متولي الشعراوي.

توفي الشيخ بمنزله بالهرم الساعة السادسة والنصف يوم الأربعاء الثالث والعشرين من صفر سنة تسع عشرة وأربعمائة وألف هجري، الموافق ل17 من أبريل عام 1998مبعد معاناة من عدة أمراض عن قرابة التسعين عاما، وقد شيعت جنازته من قريته ودفن بها حسب وصيته.

وقد قضى الإمام الشعراوي حياته كلها في خدمة العلم وأهله، فخلف وراءه مكتبة ثرية في مختلف العلوم الشرعية والفكرية، وفيما يلي عرض لجملتها :

(الإسراء والمعراج، 100 سؤال وجواب في الفقه الإسلامي، أسرار بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، المرأة كما أرادها الله، الإسلام والفكر المعاصر، معجزة القرآن، الإسلام والمرأة، عقيدة ومنهج، من فيض القرآن، الشورى والتشريع في الإسلام، نظرات في القرآن، الصلاة وأركان الإسلام، على مائدة الفكر الإسلامي، الطريق إلى الله، القضاء والقدر، الفتاوى، هذا هو الإسلام، لبيك اللهم لبيك، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، تفسير الإمام الشعراوي، منّ الله تعالى عليه بتفسير الأجزاء من 1 - 27 من كتاب الله الكريم وانتهى به الأجل قبل أن يتم تفسير ما تبقى منه).

ثانيا: أهمية تفسير الإمام الشعراوي.

تظهر أهمية تفسير الإمام الشعراوي من خلال المنحى التفسيري الذي اعتمده في بيان المعاني القرآنية ، فكل من يطلع على تفسيره ويقرأ فيه يدرك مدى مقدرة الإمام على الغوص للكشف عن المعاني القرآنية، ليستخرج منها الدرر الكوامن بأسلوب قريب سهل بعيد عن كثرة النقولات وعرض المسائل المتفرعة، إذ كان يتصيد من المعاني أرفعها وأجودها وأقربها إلى واقع الناس وتأثيرا في أحوالهم . يقول الإمام الشعراوي: " وخواطري حول القرآن الكريم لا تعني تفسيراً للقرآن وإنما هي هبّاتٌ صفائيةٌ تخطر على قلب المؤمن في آية أو بعض آية، ولو أن القرآن كان من الممكن أن يُفَسّر؛ لكان ﷺ أولى الناس بتفسير هذا القرآن لأنه عليه نَزَل وبه انفَعَل... فأنا بدوري أحوم بخواطري حول هذه المعاني إيناساً بعلة حكم ، أو استمالة لجمال أداء ، أو اكتشافاً للمعطيات القرآنية في الأسرار الكونية ، وأملي من ذلك أن يعشق المسلمون إسلامهم أولاً ، وأن يعلموا جيدًا أن واقع الحياة سيرغم إلى كثير من أحكام القرآن الكريم ، فمن لم يأخذه دينا سيأخذه نظاماً ".[3]

ولعل أهمية تفسير الإمام تتجلى لنا من خلال المنهج الذي سار عليه في بيان المراد من كلام الله، ومن أبرز معالمه[4]:

1- التحليل اللغوي للكلمة وتأصيلها وبيان مشتقاتها ومعانيها، وبيان المعنى المراد منها في سياق الآيات القرآنية الكريمة.

2- شرح المعاني وتيسيرها وتبسيطها بحيث يستوعب المعنى العميق والدقيق كل من العالم وغير العالم والمثقف والأمي، فلا يخفى على أحد أي معنى من تلك المعاني.

3- ضرب الأمثال من واقع حياة الناس ومألوف عاداتهم وأعرافهم ومقتضيات فطرتهم والاستئناس بالحس والمشاهدة والمسلم به مما يجري عليه منطف الناس وسلوكهم ولتقريب الناس من القرآن الكريم.

4- الجمع بين التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور. مما جعل تفسير ممتعا ومفيدا، يلبي حاجة النفوس، ويروي ظمأ القلوب والعقول.

5- المزج بين الأسلوب العلمي العميق في الطرح والأسلوب الأدبي البسيط في التعبير، في الكشف عن المعاني القرآنية.

6- ربط واقع الحياة بالمعنى القرآني، ومزج الدين بالدنيا وضرب الشواهد من واقع الحياة على ما تدعو إليه الآيات القرآنية وما توجه إليه الناس.

7- غوصه في المعاني، واستخراج أقواها وأصح الآراء في مغزاها، والوصوب إلى الجديد فيها الذي لم يسبقه إليه أحد.

8- الحرص على إظهار الوحدة الموضوعية للسور القرآنية، والربط الموضوعي بين السورة المفسرة من سورة الفاتحة إلى سورة البقرة مثلا وبين نظائرها وأشباهها من سور القرآن الكريم مما يتوارد معها على الموضوع والهدف، وذلك من سبل إعجاز القرآن، وأسرار التنزيل، وتوضيح الفكرة الإيجابية وتعميقها وتوصيلها إلى عقول المؤمنين وقلوبهم.

المحور الثاني: أثر الصور البيانية عند الإمام الشعراوي في فهم المعاني القرآنية وتجسديها.

سنتطرق في هذا المحور إلى جملة من علوم البيان التي عني الإمام الشعراوي بها في تفسيره، وقد عرج عليها مفصلا أثرها في تفسير كلام الله وبيان الأغراض المتوخاة منها بأسلوب ميسر وبحكمة بالغة قلما نجدها عند غيره من المفسرين، إذ كان يبرز ما تحدثه تلك الصور البيانية من خلال تجسيدها الواقعي وتصويرها للمعاني من أثر بليغ في النفوس.

أولا: التشبيه.

1- قال تعالى: { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا } [سورة :45].

تجسد هذه الآية حال الدنيا في صورة تشبيه بديعة، تصف حالها وما لها ومآلها في مشهد ملاحظ في حياة الناس يقرب لهم صورتها ويجعلهم لا يغترون بها فمنشأها إلى الفناء كالماء أحيا الزرع فنمى وازدهر فأتت عليه

الرياح هشيما فلم يعد شيئا مذكورا في مشهد سريع الحركة يبرز سرعة الزوال والفناء، يقول الشعراوي: " الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يوضح المجهول لنا بما عُلِم لدينا. وأهل البلاغة يقولون: في هذه الآية تشبيه تمثيل؛ لأنه سبحانه شبّه حال الدنيا في قِصَرها وسرعة زوالها بالماء الذي نزل من السماء، فارتوتْ به الأرض، وأنبتتْ ألواناً من الزروع والثمار، ولكن سرعان ما يذبلُ هذا النبات ويصير هشيماً مُتفتتاً تذهب به الريح.

وهذه صورة كما يقولون منتزعة من مُتعدّد. أي: أن وجه الشبه فيها ليس شيئاً واحداً، بل عِدّة أشياء، فإن كان التشبيه مُركّباً من أشياء متعددة فهو مَثَل، وإنْ كان تشبيه شيء مفرد بشيء مفرد يُسمُّونه مِثْل، نقول: هذا مِثْل هذا، لذلك قال تعالى: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال} [النحل: ٧٤] لأن لله تعالى المثل الأعلى. وهكذا الدنيا تبدو جميلة مُزهِرة مُثمِرة حُلْوة نَضِرة، وفجأة لا تجد في يديك منها شيئاً؛ لذلك سماها القرآن دُنْيا وهو اسم يُوحي بالحقارة، وإلا فأيّ وصف أقل من هذا يمكن أن يصفها به؟ لنعرف أن ما يقابلها حياة عُلْيا..." [5]

وليس هنا أقرب من هذه الصورة في بيان حال الدنيا التي يعقد عليها كثر من الخلائق آمالهم، وما هي إلا دار غرور فانية.

2- قال تعالى: { وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السّمآء فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: 31].

في هذه الآية تشبيه تمثيلي جاء غاية في البراعة مبرزا عاقبة الشرك وفضاعته في صورة توضيحية مجسدة، تجعل من السّماع يتهيب من الإصرار أو الإقدام عليه لما له من عاقبة وخيمة على صاحبه، وقد عدّ ابن عاشور هذه الصورة التشبيهية من مبتكرات القرآن التي تفرد بها عما ألفته العرب في التعبير عن المعاني والتمثيل لها[6]، يقول الشعراوي: " وتلحظ أن (خرَّ) ترتبط بارتفاع بعيد {خَرَّ مِنَ السمآء} [الحج: 31]، بحيث لا تستطيع قوة أنْ تحميه، أو تمنعه لا بذاته ولا بغيره، وقبل أنْ يصل إلى الأرض تتخطفه الطير، فإنْ لم تتخطفه تهوي به الريح في مكان بعيد وتتلاعب به، فهو هالك هالك لا محالةَ، ولو كانت واحدة من هذه الثلاث لكانت كافية. وعلى العاقل أنْ يتأمل مغزى هذا التصوير القرآني فيحذر هذا المصير، فهذه حال مَنْ أشرك بالله، فإنْ أخذتَ الصورة على أنها تشبيه حالة بحالة، فها هي الصورة أمامك واضحة، وإنْ أردتَ تفسيراً آخر يُوضِّح أجزاءها: فالسماء هي الإسلام، والطير هي الشهوات، والريح هي ريح الشيطان، يتلاعب به هنا وهناك. فأيُّ ضياع بعد هذا؟ ومَنْ ذا الذي ينقذه من هذا المصير؟ ".[7]

وقد استفاد الإمام الشعراوي مما ذكره الزمخشري في بيان دلالة التشبيه في الآية، عندما قال: " يجوز أن يكون التشبيه من المركب والمفرق . فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير ، فتفرق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة . وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة ".[8]

3- قال تعالى: { مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هذه الحياة الدنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظلموا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولكن أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [آل عمران: 117].

يضرب الله سبحانه وتعالى مثلا وتشبيها يجسد به حال ومآل نفقة الكافرين، يُظهر من خلاله بطلانها وذهابها هباء منثورا بغير جدوى ولا فائدة ولا عوض عقابا لهم على سوء نواياهم وسوء أعمالهم، مشبّها المعقول بالمحسوس، إذ شبه الإنفاق بالريح.[9] يقول الشعراوي: " وعندما نمعن النظر نجد في هذه الآية «مشبها» و «مشبها به» ، المُشَبَّه هم القوم الذي ينفقون أموالهم بغير نية الله، أي كافرون بالله، والمُشَبَّه به: هو الزرع الذي أصابته الريح وفيها الصر، والنتيجة أنه لا جدوى هنا، ولا هناك. ولماذا تصيب الريح حرث قوم ظلموا أنفسهم، وهل لا تصيب الريح حرث قوم لم يظلموا أنفسهم؟

إن الذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة، مثلهم في ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه: **{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كالصريم} [القلم: 17 – 20]** ".[10]

ثانيا: الاستعارة.

1- قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [النحل: 112].

أبدع الإمام الشعراوي في تحليل صورة الاستعارة في هذه الآية وتجسيد معناها الذي يظهر بشكل حسي ملحوظ، لينتقل المعنى من الصّورية والتجريد إلى الواقعية المجسّدة، فكأن الجوع والخوف لباسان حقيقيان فعلا باعتبار ما يلاحظ من الآثار الناجمة عنهما على حال الإنسان وظاهره، يقول الشعراوي: " جعل الجوع والخوف وكأنهما لباسٌ يلبسه الإنسان، والمتأمل في الآية يطالع دقّة التعبير القرآني، فقد يتحول الجوع والخوف إلى لباس يرتديه الجائع والخائف، كيف ذلك؟

الجوع يظهر أولاً كإحساس في البطن، فإذا لم يجد طعاماً عوّض من المخزون في الجسم من شحوم، فإذا ما انتهتْ الشحوم تغذَّى الجسم على اللحم، ثم بدأ ينحت العظام، ومع شدة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً، وعلى الجلد هُزَالاً وذبولاً، ثم ينكمش ويجفّ، وبذلك يتحول الجوع إلى شكل خارجي على الجلد، وكأنه لباس يرتديه الجائع. وتستطيع أن تتعرف على الجوع ليس من بطن الجائع، ولكن من هيئته وشُحوب لونه وتغيُّر بشرته... وكذلك الخوف وإنْ كان موضعه القلب، إلا أنه يظهر على الجسم كذلك، فإذا زاد الخوف ترتعد الفرائص، فإذا زاد الخوف يرتعش الجسم كله، فيظهر الخوف عليه كثوب يرتديه.

وهكذا جَسَّد لنا التعبير القرآني هذه الأحاسيس الداخلية، وجعلها محسوسة تراها العيون، ولكنه أدخلها تحت حاسَّة التذوق؛ لأنها أقوى الحواسّ. وفي تشبيه الجوع والخوف باللباس ما يُوحي بشمولهما الجسم كله، كما يلفّه اللباس فليس الجوع في المعدة فقط، وليس الخوف في القلب فقط ".[11]

ومجرى الاستعارة المكنية هنا أنّ الإذاقة حقيقتها إحساس اللسان بأحوال الطعوم. وهي مستعارة هنا إلى الإحساس بالألم والأذى إحساساً مَكيناً كتمكّن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعاً، لذلك جاء التعبير عن الصورة بلفظ الإذاقة، وهو أوفى وأبلغ في بيان الإيلام المُحسّ فعلا مما لو قيل " كساها " فيفوت ذلك المعنى بها، كما أنّ اللباس حقيقته الشيء الذي يلبس. وإضافته إلى الجوع والخوف قرينة على أنه مستعار إلى ما يغشَى من حالة إنسان ملازمةٍ له كملازمة اللباس لابسَه.[12] وفي هذا يقول الخطيب القزويني: " حيث قال أذاقها ولم يقل كساها فإن المراد بالإذاقة إصابتهم بما استعير له اللباس كأنه قال فأصابها الله بلباس الجوع والخوف ... شبه ما يدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع فإن قيل الترشيح أبلغ من التجريد فهلا قيل: فكساها الله لباس الجوع والخوف .

قلنا لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس فكان في الإذاقة إشعار بشدة الإصابة بخلاف الكسوة فإن قيل لم لم يقل فأذاقها الله طعم الجوع والخوف؟ قلنا لأن الطعم وإن لاءم الإذاقة فهو مفوت لما يفيده لفظ اللباس من بيان أن الجوع والخوف عم أثرهما جميع البدن عموم الملابس ".[13]

2- قال تعالى: { وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب أَخَذَ الألواح وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [الأعراف : 154].

في هذه الآية استعارة مكنية، فسكوت الغضب استعارة شبه خمود الغضب بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوته وحذف المشبه به. ومجرى هذه الاستعارة أن كما ذكر ابن عاشور: " أن السكوت مستعار لذهاب الغضب عنهُ، شُبّه ثَوَرانُ الغضب في نفس موسى المنشىء خواطر العقوبة لأخيه ولقومه، وإلقاء الألواح حتى انكسرت، بكلام شخصُ يغريه بذلك ، وحسّن هذا التشبيه أن الغضبان يجيش في نفسه حديث للنفس يدفعه إلى أفعال يطفىء بها ثَوران غضبه ، فإذا سكن غضبه وهدَأت نفْسه كان ذلك بمنزلة سكوت المغري ، فلذلك أطلق عليه السكوت، وهذا يستلزم تشبيه الغضب بالناطق المغري على طريقة المكنية ، فاجتمع استعارتان ، أو هو استعارة تمثيلية مكنية ؛ لأنه لم تذكر الهيئة المشبهُ بها ورُمزَ إليها بذكر شيء من رَوادفها وهو السكوت ، وفي هذا ما يؤيد أن إلقاء الألواح كان أثر للغضب ".[14]

بينما ينحو الإمام الشعراوي منحى آخر في اخراج هذه الاستعارة، ويعطيها بعدا واقعيا مشخّصا، حينما ينطلق من التساؤل عن طبيعة هذا الغضب الغضب، وكيف يصحّ أن له سكوت حقّا، وذلك في قوله: " وهل للغضب سكوت؟ هل للغضب مشاعر حتى يسكت؟

نعم؛ لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً نزوعيًّا أمام من أذنب ، فكأن الغضب يلح عليه ، ويقول للغاضب: اضرب، اشتم، اقتل. كأن الغضب قد مُثِّل وصُوِّر في صورة شخص له قدرة إصدار الأوامر، فشبَّه الله الغضب بصورة إنسان يلح على موسى في أن يفعل كذا، ويفعل كذا، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنهأ وهو كما قال إخواننا العلماء: من القلب في اللغة، أي أنه يقلب المسألة، اتكالاً على أن فطنة السامع سترد كل شيء إلى أصله؛ كما نسمع في اللغة: خرق الثوبُ المسمارَ، نفهم من هذا القول أن المسمار هو الذي قام بخرق الثوب؛ لأننا لن نتخيل أنّ الثوب يخرق مسماراً. ويسمى ذلك « القلب » أي أن يأتي بمسألة مقلوبة تفهمها فطنة

السامع. أو أن المسمار مستقر في مكانه، والثوب هو الذي طرأ عليه فانخرق، فيكون سبب الخرق من الثوب، فكأن الفاعلية الحقيقية من الثوب: { وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب}. أو تكون كلمة (سكت) كناية عن أن الغضب زال وانتهى".[15]

ثالثا- الكناية:

الكنابة لمحة دالة عن المعنى المراد بصورة غير مباشرة ، يعمد إليه المتكلم ليؤدي من خلالها اغراضا بلاغية قد لا يؤديها ما لو جاء كلامه مباشرة، وتعد من أرقى صور البيان، ولا ستطيع أن يتصيّد " الجميل النادر منها، ووضعه في الموضع الملائم لمقتضى الحال إلاَّ أذكياء البلغاء وفطناؤهم، وممارسو التعبير عمّا يريدون التعبير عنه بطُرُقٍ جميلة بديعة غير مباشرة، إنّ الذكيّ اللَّمَّاح إذا أراد أن يتحدّث عن شيءٍ ما، صفةً كانَ، أو موصوفاً، أو نسبةً حكميّة، جالَ ذهْنُهُ لِيَدُلَّ على ما يُريد التعبير عنه بطريقة غير مباشرة، وطافَ في محيط ذلك الشيء لينتقي ممّا يلاحظ ما يُدلُّ به عليه، فَيُبْعِدُ حيناً، ويَقْرُبُ حيناً، ويتوسطُ حيناً، آخر، ويستَبْعِدُ ما لا يَراه حسناً جميلاً، ومَا لاَ يرى دلالته مناسبةً لمقتضى الحال ".[16]

وقد جاءت كنايات القرآن كلها في أعلى درجات البيان والدقة في العرض مع جمال التعبير وحسنه، وقد تعرض الإمام الشعراوي في تفسيره لهذه الكنايات موضحا ما ترمي إليه .

1- الكناية في الاستعمال القرآني للألفاظ:

أ- من صور الكناية المتعلقة بالألفاظ ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: **{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط } [الإسراء: 29]**

يقول الشعراوي: " واليد عادة تُستخدم في المنْح والعطاء، نقول: لفلان يد عندي، وله عليَّ أيادٍ لا تُعَد، أي: أن نعمه عليَّ كثيرة؛ لأنها عادة تُؤدّي باليد، فقال: لا تجعل يدك التي بها العطاء (مَغْلُولَة) أي: مربوطة إلى عنقك، وحين تُقيّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق، فهي هنا كناية عن البُخْل والإمساك. وفي المقابل: **{وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط} [الإسراء: 29]**. فالنهي هنا عن كل البَسْط، إذن: فيُباح بعض البسْط، وهو الإنفاق في حدود الحاجة والضرورة. وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والعطاء..."[17]

فشديد البخل الذي لا يستطيع أن يمد يده بالعطاء، يكنى بعبارة: "مَغْلُول الْيَدِ إلى العُنق". لأنّ من كانت يده كذلك كان غير قادر على أن يبسطها لو أراد ذلك، وعلى نحوه الشحيح الذي يكون بُخْلُهُ شدِيداً، فحالة يدِهِ الّتي يعطي بها عادة مع شُحّ نفسه، كحالة مَنْ غُلَّتْ يَدُهُ إلى عُنُقِه. وفي مقابل هذه الكناية تأتي بسط اليّد للدّلاَلة بها على الجود. وتأتي كناية الإفراط في البسط للدّلالة بها على الإسراف.[18]

ب- وفي سياق آخر يبرز لنا الإمام الشعراوي الدور التجسيدي الواقعي الذي يؤديه التعبير القرآني الكنائي في قوله تعالى: **{ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا } [الإسراء: 24].**

أجرى الشعرواي هذه الآية على سبيل الكناية، وذلك في قوله: " الخفض ضد الرفع، والطائر معروف أنه يرفع جناحه ويُرفْرِف به، إنْ أراد أن يطير، ويخفضه إنْ أراد أن يحنوَ على صغاره، ويحتضنهم ويغذيهم. وهذه صورة مُحسَّة لنا، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نقتدي بها، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة، فنحنو عليهم، ونخفض لهم الجناح، كنايةً عن الطاعة والحنان والتواضع لهما، وإياك أن تكون كالطائر الذي يرفع جناحيه ليطير بهما مُتعالياً على غيره ".[19]

بينما يجري علماء البلاغة هذا التعبير على سبيل الاستعارة المكنية، التي حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وذلك أنه شبه الذل بطائر بجامع الخضوع واستعير الطائر للذل، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الجناح، على سبيل الاستعارة المكنية.

ويرى عبد الرحمن حبنكة الميداني أن هذا المثال، هو من باب التشبيه، وجعله من باب الاستعارة المكنية خروج عن قواعد علماء البيان، في قوله: " تشبيه التَّذَلُّلِ لِلْوَالِدَيْنِ بتذّلل الطائر حين يخفض جناحَيْهِ أو جناحَه مُنْكَسِراً لفراخِه أو لزوجه أو لغيرهما، ولكِنْ أُضْمِر التشبيه، فلم يُذْكَرْ لفظُ المشبّه به، وإنّما كُنِّيَ عَنْه بشيءٍ من صفاته وهو الجناح، وأضيف هذا المكنَّى به إلى المشبَّه. وهذا على ما يظهر هو من التشبيه البليغ المكنّى فيه عن المشبَّه به ببعض صفاته. ومعنى الجملة على هذا التحليل: ليكُنْ ذُلُّكَ لوالِدَيكَ كطائرٍ يخفض جناحه تذلُّلاً من الرَّحْمَة، فَحُذِفَتْ أوّلاً أداة التشبيه فصار تشبيها بليغاً، ثمّ حُذِفَ لفظ المشبّه به، ورُمِزَ إليه بشيء من صفاته وهو الجناحُ الذي يُسْتَعْمَلُ خفضُه للدلالة به على التذلُّل والرَّحْمَة، فصار تشبيهاً مَكْنِيّاً.

وناسَبَ هذا التشبيهَ استعمالُ فِعل "الْخَفْض" في عبارة {واخْفِضْ لَهُما} وظَاهرٌ أن هذا الْخَفْضَ يَشْتَرِكُ فيه المشبَّهُ والمشبَّهُ به، فالطائر يخفض جناحه، والإنسان يخفض جانبه الجسدي، ويخفض جانبه النفسيّ ".[20]

ج- قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين} [الشعراء: 214] .

وهذا المثال قريب من سابقه، وقد أجراه الإمام الشعراوي على الكناية عن اللطف واللين، مبرزا أثرها في بيان المعنى من الآية، في قوله: " وتأمل {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين} [الشعراء: 214]. والإنذار كما ذكرنا التحذير من الشرِّ قبل أوانه، فلم يقُلْ: بشِّر عشيرتك، كأنه يقول له: إياك أنْ يأخذك به لين ورَأْفة، أو عطف لقرابتهم لك، بل بهم فابدأ... وفي الوقت الذي يدعوه إلى إنذار عشيرته الأقربين يقول في مقابلها: {واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك} بعد أن أمره بالشدة على أهله وقرابته يأمره باللين، وخَفْض الجناح لباقي المؤمنين به، وخَفْض الجناح كناية عن اللُّطْف واللين في المعاملة، وقَد أُخِذ هذا المعنى من الطائر حين يحنو على فراخه، ويضمهم بجناحه.

وخَفْض الجناح دليل الحنان، لا الذلّة والانكسار، وفي المقابل نقول (فلان فارد أجنحته) إذا تكبَّر وتجبَّر، وتقول (فلان مجنح لي) إذا عصا أوامرك. وفي موضع أخر: {واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: ٨٨] . قال في حَقِّ الوالدين: {واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة} [الإسراء: ٢٤] فلا نقول: كُنْ ذليلاً لهم، إنما كُنْ رحيماً بهم، حَنُوناً عليهم، ففي هذا عِزّك ونجاتك ".[21]

2- الكناية في الاستعمال القرآني للحروف:

كان الإمام حذقا في استخراج الكنايات التي تدل عليها الألفاظ كما رأينا، وقد قاده حسه البلاغي ومقدرته على فهم الخطاب القرآني إلى الكشف عن جملة من الكنايات التي تتضمنها حروف المعاني، وهذا الامر من القة بما كان، إذ قد تكون الكنايات في الألفاظ ظاهرة، بينما هي في الحروف خفية تحتاج إلى بعد نظر وحكمة بالغة، ومما وقف عليه الإمام من الكنايات الحرفية ما يأتي.

أ- قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النساء:57].

كشف الإمام الشعرواي في هذا التعبير القرآني عن دقة التعبير القرآني في اختيار دلالة حرف الاستقبال " السين " في قوله: " **سَنُدْخِلُهُمْ** "، وأعطاه بعدا تصويرا كنائيا في سياقه يحيل إلى الإغراء بالطاعة والتسريع إليها، مما لو استعمل الحرف " سوف " كما جاء في سياق آخر، وذلك في قوله: " وفي هذه الآية يصف الحق ثواب الفئة المقابلة للفئة السابقة وهم الذين آمنوا ، ونعلم أن آخر موكب من مواكب الرسالة هو رسالة محمد ﷺ. إذن فأمة سيدنا محمد هي أقرب الأمم إلى لقاء الله . فالأمم من أيام آدم أخذت زمناً طويلاً ، لكننا نحن المسلمين قريبون ، ولذلك يقول النبي ﷺ : [بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين].

ولذلك لم يقل الحق في الآية: سوف ندخلهم. بل قال : { سَنُدْخِلُهُمْ } ، أما مع الآخرين فاستخدم سبحانه « سوف» لأنها بعيدة، أو أن هذا كناية وإشارة من الله لإمهال الكفار ليتوبوا ، وعندما يقرب لنا سبحانه المسافة فإنه يغرينا بالطاعة، المسألة ليست بعيدة ، بل قريبة؛ لذلك يعبر عنها: { سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار} ".[22]

ب- قال تعالى: { سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [البقرة:211].

في هذه الآية أيضا تنبه الإمام الشعراوي إلى صورة كنائية أضافها الاستعمال القرآني للحرف " كم " للكناية على الكثرة التي لا تحصى في سياق بيان ما امتن به الله على عباده من الخيرات والنعم، في قوله: " فكأن الله لم يحمل على بني إسرائيل ويريد منهم أن يقروا على أنفسهم بما أكرمهم به الله من خير سابق... والحق سبحانه وتعالى يقول: { سَلْ بني إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم } ساعة تسمع { كَمْ } في مقام كهذا فافهم أنها كناية عن الإخبار عن الأمر الكثير بخلاف { كَمْ } التي تريد بها الاستفهام. وأنت تقول: « كم فعلت كذا مع فلان » و« كم صنعت معه معروفاً » و« كم تهاونت معه » و « كم أكرمته ». لذلك فعندما تسمع { كَمْ } هذه فاعرف أن معناها الكمية الكثيرة التي يُكنى بها على أن عدد لا يحصى ".[23]

خاتمة.

نصل في نهاية هذا المقال إلى رصد خلاصة النتائج التي وقفنا عندها من خلال النماذج التطبيقية التي قمنا بعرضها فيما يتعلق بعلم البيان، إذ لاحظنا أنّ الإمام الشعراوي لم يكن يقف عند الصور البيانية ليبرز وجه دلالاتها بشكل عام فحسب، بل كان ينظر إليها في جملة السياق الذي جاءت فيه، رابطا بينها وبينه، حتى يكتمل عنده وجه دلالتها على نحو شامل، إضافة إلى عنايته بإظهار ما تجسده من معانٍ واقعية ذات أبعاد تأثرية

مباشرة على المتلقين، وهذا البعد الواقعي في الصور البيانية كان الإمام الشعراوي يتخذه منطلقا في فهمه لكلام الله، على غرار ما قد نجده في كتب البلاغة من تفصيل في تحليل الصورة البيانية ببيان أطرافها ووجوه العلاقة بينها وما تؤول إليه من معنى، على صورة نمطية ربما تكاد تتكرر في كامل المصنفات البلاغية.

قائمة المراجع:

1- أحمد عمر هاشم: الإمام الشعراوي مفسرا وداعية، دار أخبار اليوم- قطاع الثقافة، القاهرة.

2- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس، 1997 م.

3- أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1422 هـ - 2001 م.

4- جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج3، ص157.

5-الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم- بيروت، 1419هـ 1998م.

6- سعيد أبو العنين: رحلات الشعراوي في أوروبا وأمريكا، دار اخبار اليوم- مصر.

7- عبد الرحمن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم للطباعة والنشر، ط1، 1414هـ

8- محمد بن رزق طرهوني: التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط2، 1426هـ.

9- محمد زايد عبد الله: مذكرات إمام الدعاة، دار الشروق.

10- محمد صديق المنشاوي: الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات، دار الفضيلة- القاهرة.

11- محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي (الخواطر)، مطابع أخبار اليوم- مصر، ج1، ص9.

12- منصور كافي: الشيخ محمد متولي الشعراوي ومنهجه في التفسير، مجلة كلية العلوم الإسلامية (الصراط)، السنة 06، العدد 02، 1427هـ - 2006.

هوامش وإحالات المقال

[1]- ينظر ترجمة الإمام: محمد صديق المنشاوي: الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات، دار الفضيلة- القاهرة، ص7 وما بعدها. وينظر: محمد بن رزق طرهوني: التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط2، (1426هـ)، ج1، ص467. وينظر: محمد زايد عبد الله: مذكرات إمام الدعاة، دار الشروق، ص25 وما بعدها. وينظر: منصور كافي: الشيخ محمد متولي الشعراوي ومنهجه في التفسير، مجلة كلية العلوم الإسلامية (الصراط)، السنة 06، العدد 02، 1427هـ - 2006، ص113-119. وينظر: سعيد أبو العنين: رحلات الشعراوي في أوروبا وأمريكا، دار اخبار اليوم- مصر، ص5-8.

[2]- ينظر: محمد زايد عبد الله، مذكرات إمام الدعاة، ص25 .

[3]- محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي (الخواطر)، مطابع أخبار اليوم- مصر، ج1، ص9.

[4]- ينظر: أحمد عمر هاشم: الإمام الشعراوي مفسرا وداعية، دار أخبار اليوم- قطاع الثقافة، القاهرة، ص 5 وما بعدها؛ وينظر: منصور كافي: الشيخ محمد متولي الشعراوي ومنهجه في التفسير، ص120-122.

[5]- تفسير الشعراوي، ج14، ص8923.

[6]- ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس، 1997 م، ج1، ص121.

[7]- تفسير الشعراوي، ج16، ص9806

[8]- جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت،ج3، ص157.

[9]- ينظر: أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1422 هـ- 2001 م، ج3، ص32.

[10]- تفسير الشعراوي، ج3، ص1701.

[11]- تفسير الشعرواي، ج13، ص8253.

[12]- ينظر: ابن عاشور: التحرير والنوير، ج14، ص306.

[13]- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم- بيروت، 1419هـ 1998م، ص281.

[14]- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج9، ص122.

[15]- تفسير الشعراوي، ج1، ص3061.

[16]- عبد الرحمن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم للطباعة والنشر، ط1، 1414هـ، ج1، ص573.

[17]- تفسير الشعراوي، ج14، ص:481.

[18]- ينظر: عبد الرحمن حبنكة المداني: البلاغة العربية، ج1، 574.

[19]- تفسير الشعراوي، ج14، ص:463.

[20]- عبد الرحمن حبنكة المداني: البلاغة العربية، ج1، ص622-623.

[21]- تفسير الشعراوي، ج17، ص706-707.

[22]- تفسير الشعراوي، ج1، ص 1601.

[23]- تفسير الشعراوي، ج1، ص553.